أصل الدين
للفيلسوف: لدفيج فيورباخ

تقديم: العيد معروفي[1]

لاشك، أن مسالة البحث في أصل الدين، قد أخذت حضورا واسعا في الديانات والفلسفات القديمة، كـ (لمسيحية و اليهودية والإسلامية).غير أن بداية الانعطاف والانزياح، والتشكيك في منابع الدين، قد تزامنت في مرحلة جد متأخرة ارتبطت تاريخيا بعصر النهضة، بدءا بإصلاحات البروتستانتي الألماني لوثر(1483،1546)، والايطالي الفرنسي كالفن (1509-1564).

مما حدث خلخلة لمفهوم الحقيقة المطلقة (الرب، الكنيسة،واللاهوت)، وهذا التشكيك المصادف، والمفاجئ معا، ساهم بمّد الدعم لفلاسفة الأنوار و الحداثة، بنور و وعي جديد " أطلق عليه الإنسان جوهرا للحقيقة". لكون هاته الأخيرة ظلت نسبية .

وواحد من بين هؤلاء الفلاسفة الذين امنوا بهاته الفكرة،ثم عمّمها في جّل كتاباته، اقصد الفيلسوف الألماني لدفيج فيور باخ أندرياس*الذي أفصح في أكثر من مقال بأنه ينوي :<< إنارة المناطق المظلمة للدين، بمصابيح العلم، حتى يمكن للإنسان،أن لا يقع ضحية للقوى المعادية،التي تستفيد من غموض الدين لتقهر الجنس البشري. [2]>>.و الإشكالية المحورية التي يعالجها فيور باخ في كتابه هذا هي : كيف يمكن للإنسان بان يكون جوهر للدين بلّا مرجعية الإله ذاته . ؟.

---

[1] باحث في الفلسفة جامعة الجزائر الجزائر

*- فيلسوف و عالم اجتماع ألماني ، ولد ببفاريا سنة 1804 ، توفي في بريشنباخ 1872 ، ترك لنا مؤلفات كبيرة في اللاهوت نذكر منها : تاريخ الفلسفة الحديثة ، من بيكون إلى سبينوزا عام .1833 - عرض وتطوير فلسفة ليبنيز. - بير بايل ، 1838. - جوهر المسحية ، 1841، - ماهية الدين ، 1848 انظر في كتاب . فيور باخ، أصل الدين ، دراسة وترجمة ، د. احمد عبد الحليم عطية ، المؤسسة الجا معية للدراسات والنشر و التوزيع بيروت ، لبنان ، ط1 1991 ، ص 35، 37

[2] -. المصدر نفسه ، ص 7.

إذ ونحن بدورنا *نتساءل أيضا* مع فيورباخ: على أي أساس يكون الإنسان جوهرا للدين ؟

وما قيمة هذا الطرح الإنساني بحسب فيورباخ ؟.الكتاب مكون من مبحثين رئيسين هما :

1 – المحطات الأساسية في تشكل فكر ديني لفيورباخ

2- ماهية الدين عند فيور باخ.

يستهل المترجم ترجمته هاته بتقديم ديباجة يعرض فيها أهم الردود، والدوافع التي أشادته نحو فلسفة فيورباخ إذ من بينها :[3]

1- طموحه لفهم فلسفة فيورباخ كفلسفة تصلح بأن تغير واقعنا الهزل،وتنير طريق لمستقبل إنسانيتنا البائسة .

2- الدعوة إلى الانفتاح إلى هاته الوجهة الفلسفية للاستفادة أيضا، بزحزحة التراث الديني الذي ظلّ قيد التفكير الإنساني،ومحاولة الخروج من الدين لأنه لم يعد يقدم لنا الأطر المعرفية. بل اكتفى بتوجيه عقائدينا فقط .

و يعرض لنا المترجم في الجزء الأول من هذا الكتاب،المعنون بعنوان طويل وعريض : "جوهر الدين عند فيورباخ" إذ يشرح في متنه أهم المحطات التي واجهت فكر فيورباخ نحو الدين، وقد حصرها في محطتين أساسيتين هما : [4]

1- الجذور الهيغلية للدين الإنساني.

2- مراحل تفكير فيورباخ بالدين.

لاشك أن فيورباخ قد استفاد من أستاذه هيغل في أمور كثيرة ،خاصة بالفلسفة عموما والدين بخاصة كيف لا ؟ وهو القائل بان هيغل يمثل بالنسبة إليه الأب الثاني بعد مرحلة الأبوة البيولوجية الأولى.

---

[3] - فيور باخ، أصل الدين ، دراسة وترجمة ، د. احمد عبد الحليم عطية ، المصدر السابق ، ص 17.

[4] - المصدر نفسه ، ص18.

و لكن: فيما تتجلى أثار هاته المواقف التي انعكست في كتاباته ؟و هل هي مرحلة لبداية جديدة ؟ أم أنها مرحلة تتسع وتمتد لطرح هيغلي سابق .؟

1/- الجذور الهيغلية للدين الإنسان

فبلا شك أن هيغل بالنسبة لـــــــــــفيورباخ هو أول من نظر لفلسفة الدين،وهذا ما استقاه فيورباخ من فلسفة هيغل ذاتها، فعكست له اقصد فيورباخ بما يسمى بالوعي المسلوب في الإنسانية .

ويتجلى هذا الاسترداد في تلك المحاضرات التي ألقاها هيغل في الدين، بخاصة تلك الشرارات التي صوابها اتجه الديانة المسيحية،كما اسردها فيورباخ في هذا الكتاب: " أنه لا يجب أن يقتصر الدين على العقائد الجامدة،ولا يجوز تعلمه من الكتب،ولا يجب أن يكون لاهوتيا بل بالأحرى أن يكون قوة حية تزدهر في الحياة الواقعية للشعب. أي في عاداته و تقاليده وأعماله و احتفالاته، يجب أن لا يكون الدين أخرويا [متعلقا بالآخرة]،بل دنيويا إنسانيا،وعليه أن يمجد الفرح والحياة الأرضية لا الألم والعذاب وجحيم الحية الآخرة. " [5].

إذن هذا الاستشراف الهيغيلي،هو ربما طرح أصيل،خاصة لأنه يستاصل فيه الإنسان بدل الله،كما جرت العادة في السابق .ولو عدنا إلى إصلاحات لوثر،لا نجد هذا التعليل،بيد أن ما نجده عنده هو الرفض الكلي للتعاليم الكنسية التي عمّدت على احتواءها المطلق للفهم الديني .

لكن تلاميذ هيغل اليمانيين، رفضوا الفهم لسيء الذي ألحقه فيورباخ بفلسفة الدين عند هيغل،وراو أن هيغل لا يمكن أن يفهم، خارج التصوف،بل راو بان هيغل لم يبشر قط برفض الله في فلسفته، وهذا الدفاع نجده عند كل من ميور Mure ويعقوب بوهمه والسيد أبكارت إذ أكدوا : " بأن الإنسان موجود لوجود الله"[6]. بالمعنى الهيغلي.

---

[5]- المصدر السابق ، ص12.

[6]- المصدر السابق ، ص 13.

ونجد حتى الفيلسوف روجي غار ودي يتفق مع هذا الرأي، إذ جاء في كتابه: فكر هيغل يقول فيه: " صلة الله بالإنسان كما يتصورها هيغل، هي المشكلة الأساسية في الدين." [7].

معنى هذا أن محاضرة هيغل في الدين قد ركزت على الإلوهية والتوحيد. فالإنسان بحسبه يمارس الدين لأنه مفطور على هاته الطبيعة، إذن الإنسان تابع لله و الإنسان لا يؤثر في ذات الله،لأن الله يتجلى لذاته.

ومن هنا فان محاولة فيورباخ عموما، لا ننكر بأنها تغذت من رحم فلسفة هيغل،ولكن مرحلة الانزياح فيها بدأت بانعطاف فيورباخ،نحو شق طريق أخر، بنحو فلسفة جديدة لا تمت للفلسفة المسيحية بأي قرابة، بل الفلسفة الأصيلة بحسبه هي التي ترى في الإنسان الراعي الأصيل للدين بلاّ "مرجعية الإله ذاته" .[8].

2- المراحل الكبرى في فكر ديني عند فيورباخ :

إن مشروع فيورباخ في نقده للدين، يشتمل تلك الكتب الأربعة المتتالية التي برّر فيها مفهومية الإنسان جوهر الدين .

1- المرحلة الأولى: جوهر المسيحية

إذ بداية تفكيره بدأت من دهشته نحو علاقة الإنسان كتصور مادي والله كتصور مجرد مثالي، ولا شك أن هذا التصور موجود عند جميع البشر . [9] وهذا ما اعرض عنه في أول مقال له جاء باسم " تأملات حول الموت والخلود" و بداية تأمله الفلسفي في هذا الكتاب يكمن عنده انأ الله ليس كائن مجرد عني،بل حتى يمكنني أن : " أتصور الله ذهنيا يجب أن انفي كل التحديدات وكل القيود وكل ما يحيط بنا من حدود تحد الأشياء المتناهية.". [10]

---

[7]- المصدر السابق ، ص 18.

[8]- المصدر السابق ، ص 18.

[9] - المصدر السابق ، ص 19.

[10]- المصدر السابق ، ص19.

ما يريد قوله فيورباخ هنا أننا لو نظرنا أن الإله (الله) بالنظرة اللانهائية،سوف يكون هذا الإله مجرد وهم خارج عن الطبيعة لا يعكس الذات الإنسانية .

بيد أن الله والإنسان هما روح واحدة وحتى تنسجم هاته الأرواح ؛ لابد للإنسان أن يدرك أن الله ينتسب من الإنسان،والإنسان هو الآخر يعد إلى الله، والتصور الآخر أن ضعف الإنسان في الطبيعة هو من جعله يتصور الله خيرا مجرد عن الإنسان في صفاته وقوته يحتاج إليه الإنسان لتنظيم علاقاته داخل الجماعة، ليسود التساوي،وهذا ما سماه فيورباخ " أن الإنسان قد خلق الله على صورته الجوهرية" . ودليله في هذا أن طبيعة الإنسان الفعلية وطبيعته الجوهرية يتباعدان جدا، فالعقل يعرف عن الإنسان، وطبيعته الجوهرية يعني (مثالية الإنسان) هي من تحاول دوما أن تعكس صورة هذا الله ومن هنا فالعجز الإنساني دوما يترجم إلى قوة خفية وقوية، وهي من تسير هذا الإنسان و لقد اختزلها هذا الكائن في صورة الله .

2- المرحلة الثانية (جوهر الإيمان)

في هذا الكتاب ينتقل فيورباخ من جوهر المسيحية إلى جوهر الدين،وهذا الكتاب هو محاولة لتعميم أقوال لوثر التي رأت بأن الآلهة ما هي في النهاية إلا مشاعر وأفكار داخلية،يحس بها الإنسان للترفيه عن آلامه ورغباته. ومن هذا المنطلق تأسست قراءته التي تقول بأنه " هناك تشابه بين الدين والأحلام".

بمعنى أن الممارسة الدينية ما هي إلى حلم يحلم بها الكائن لسد ثغرات وموجة الاغتراب و التياهات و العجز، ودليله في ذلك هو كيف نفسر انحراف بعض المتدينين المتعصبين لبلوغهم أعلى درجات التصوف لكن في مطب هذا التصوف تجدهم أكثر بدائية ؟ .

وربما تحضرني هنا مقولة العالم النفساني فرويد عندما قال: "إن الأفكار الدينية ليست خلاصة تجريبية أو نتيجة النهائية للتأمل والتفكير،وإنما هي توهمات تحقيق لأقدم رغبات البشرية وأشدها إلحاحا وسرّ قوتها هو قوة هذه الرغبات.".[11]

مما جعل ه. ب. أكتون في كتاب " وهم العصر the illusion of the epoch » يقول :" إنه لا يمكن لأي إنسان على معرفته بتفسير فرويد للدين، في كتابه مستقبل الوهم إلا أن يمتلكه الإعجاب للتشابه الشديد بينه وبين آراء فيورباخ."[12] .

فالدين بحسب فيورباخ قد ارتبط في منبعه الأول بمفهوم الرغبة،نظرا لعجز الإنسان عن تلبية رغباته، فصار ينظر إلى الكون بأنه تحكمه قوانين إلهية،وحتى لا يهدد في بقائه،لازم عليه الركوع و الامتثال إلى السماء في كل يوم . فنور السماء بالنسبة إليه هو نور الله، وقوة البرق هي أيضا قوة من قوة الله.

وحتى الامتناع الجنسي الذي يشيده الرهبان يلقي نصيبه من التحقق في العالم المثالي فقط،وهذا إن دلّ على شيء بحسبه فإنما يدل على انفصال الروح عن الجسد وانفصال الطبيعة البشرية (المادية) عن الروح بكل بساطة. وهي مرحلة تغترب فيها الذوات ويصير الدين حلما والإنسان يجد في أحلامه أمانه،بل معاناته ومأساته. بحسب الفيلسوف فيورباخ ومن ثمة يصير الدين وهما لا سبيل له لإقامة الحجة والبرهان عليه. فالدين إذن غير قابل للتصديق وليس قابل للاحتمال، إذن هو لحظة سيكولوجية فقط سر قوته هي قوة الرغبة والعواطف.

ثم أن الإنسان الكلاسيكي في المرحلة الأولى بحسب فيورباخ،عاش أوهام الدين أكثر من غيره،فتأسس بما يسميه شاكلتي العجز لمزدوج :

1- فمن الناحية الأولى عجز الإنسان أمام الطبيعة دفع به،إلى التساؤل عن حجم الطبيعة و قوتها،فصار يستصغر ذاته،و يقتدي بكل ما هو اكبر منه .

---

[11] - فرويد : مستقبل الوهم ، ترجمة جورج طرابيش دار الطليعة بيروت، ط1 1984 ص 43

[12] - فيورباخ ، أصل الدين ، ترجمة د. احمد عبد الحليم عطية ، المصدر السابق، ص 27

2- من جهة أخرى،البحث في سعادته لازمته تسليم رغباته إلى قوة خفية،لتحقيق آماله و أرزاقه،فسقوط المطر مثلا هي رحمة من الآلهة،و الجفاف هو نقمة من الآلهة .

المرحلة الثالثة (جوهر الدين) :

هذا الكتاب يمثل المرحلة الثالثة في فكره وقد كشف فيه - مفهوم الدين- و توسع فيه جدا في كتاب موسع أطلق عليه اسم "محاضرات في جوهر الدين" ألقاها في هيدلبرغ (1948-1949) بل شملت تحليلاته لكثير من الديانات. [13]

لكن القانون الجديد الذي أورده هنا هو:أن الدين المسيحي قد سبقه الدين الطبيعي، ومفاد هذا القانون أن كينونة الإنسان الطبيعية هي أزلية في الزمان وفيزيقية لا أخلاقية .و الإنسان هو من أشكل عن ذاته،تبعا لهواجس الخوف و القهر معا.

فكل مشكل كان يثير فيه القلق،إلا و أحاله إلى قوة خفية للإجابة عنه،ومن هنا خلص فيورباخ على:" أن كل الانطباعات التي تنتجها الطبيعة على الإنسان بواسطة الحواس يمكن أن تعتبر بواعث عباءة دينية." [14].

إذن فبحسب فهمنا لتصور فيورباخ في هذه المرحلة أن الدين لاحق عن الإنسان،و الطبيعة هي المصدر الأصلي للكائن،ثم الدين هو ليس إلا المصدر الأول لتحقيق التكيف و الاستقرار الإنساني فقط،حتى تستطيع البشرية الترفيه عن ذاتها،و بدون هاته الوسائط،لا تضخمت الأزمة على الإنسانية القديمة،لانعدام الوعي و البديل (التقنية والعلم) .

المرحلة الرابعة: (الثيوجونيا)

إذ في هاته المرحلة "قد طور فيورباخ تصوره نحو الدين،فنشر هذا الكاتب سنة" 1857" [15] وقد أشار فيه مقدمة هذا الكتاب،إلى إنعدام السعادة التي فقدها

-[13] فيورباخ ، أصل الدين ، المصدر السابق ، ص 27

-[14] المصدر نفسه ، ص 29

الإنسان في السابق بسبب الوهم،فالديانات السابقة بحسبه قد فشلت لأنها لم تراعي الجانب ألقيمي للإنسان. بل اكتفت بتقديس الله بدل الإنسان بحد ذاته. ويؤكد برديائيف حق هذا القول بحسب مترجم الكتاب عندما قال : "التعرض للإنسان بحسب فيورباخ،معناه التعرض لله وهذا في نظري المسألة الأساسية." .[16]

والأمر الذي لاحظته هنا،طبعا من خلال هذه المرحلة خاصة في النص الأخير للكتاب أن غاية فيورباخ هو نشر السلام الدائم،لجميع الديانات باختلاف أنواعها ودياناتها، والسؤال الذي كان من المفروض أن تعمل به جميع البشرية هو البحث عن سعادة الإنسان،بدل الخوض في صراع دائم باسم الإله، ويظهر هذا في قوله:" أن عصور الإنسانية لا تتميز إلا بتغيرات دنيئة، ولا تكون الحركة التاريخية أساسية إلا إذا كانت جذورها متأصلة في قلوب البشر."[17] .فجوهر الدين إذن هو الإنسان،وصورة الله الحقيقية هو واجب كل إنسان أن ينظر إلى الإنسان بوصفه إلها .

ثم يتطرق المترجم في الجزء الثاني من هذا الكتاب لعرض سيرة حياتية حول فيورباخ، و لأننا تطرقنا إلى حياة وسيرة فيورباخ في مقدمة هذا البحث، لكن سنحاول التغلغل في جوهر هذا الكتاب وهو : " ماهية الدين عند فيورباخ ". الذي يأتي في هذا المبحث.

سنحاول طرح تساؤلنا الأولي ؟ما هي الحجج التي يبررها فيورباخ في كون أن الإنسان هو الجوهر الأصلي للدين؟

ينطلق فيورباخ في تأكيده هذا بحجج واقعية تتصل بالإنسان ذاته،و قد حصّرها في بادئ الأمر بالإنسان ككائن طبيعي متصل بالأرض،بما فيها من طعام،ماء،هواء باختصار الإنسان يعتمد على الطبيعة. [18]

---

[15] - المصدر السابق ، ص 29.

[16] - المصدر السابق ، ص 32.

-[17] الصمدر السابق ، ص 33

[18] - المصدر السابق ص 42.

وسبب نحوه للعبادات هو أحوالها و تغيراتها الدائمة، يقول: "وإذا ما وقفت الشمس دائما في السماء، فإنه ما كان لها أبدا أن تضرم النار العاطفة الدنيئة في الإنسان، وعندما كانت تختفي عن عين الإنسان، وتصيبه بأهوال الليل وعندما كانت تعاود الظهور ثانية كان يركع الإنسان، وتصيبه بأهوال الليل وعندما كانت تعاود الظهور ثانية كان يركع الإنسان على ركبتيه أمامها، وقد غلبته الفرحة لعودتها غير المتوقعة ... ".[19]

ثم إن هذا الارتباط بحسبه هو من أوجس في الأمم السابقة اللّجوء إلى الدين،بدأت في أول الأمر بعبادتهم للطبيعة ذاتها من أشجارها،صخورها، حيواناتها ... إلخ[20].

وحتى يميز الإنسان بينه وبين الحيوانات، خلق مفهوم الوساطة والعناية الإلهية والروحانية (كالملائكة والجن) ليتنزه عن الحيوان. وبفضل هذا السند استطاع الإنسان مواصلة حياته بشكل طبيعي تأسست بدافع الأمل وتحقيق الرغبة.

و هاته الأرواح بحسب فيورباخ في حقيقة الأمر :" هي روح الإنسان وخياله ونفسه التي تنقل ذاتها طواعية إلى الطبيعة وتجعلها رمزا لكينونة الإنسان"[21].

إذن الطبيعة بهذا الشكل هي المصدر الأول والأخير والمثمر للإنسان،والأمر الذي بدأ بالتابوهات و الأوهام صار فيما بعد،يعرف باسم الله مما اصبغ على هاته الحياة قيمة الجانب الروحي فقط،المتجلي في الأمل في كل ما هو غيبي .

ثم لكون أن هذا الكائن يدرك أن الوجود سابق له، أسهم في مخياله بأن لهذا الكون إله فصار الإنسان يتقرب بالقرابين للآلهة لأجل مباركتهم، ثم ليستمر هذا التصور فيما بعد،أي في ما عرف بالديانات التوحيدية بان: " الله هو أكثر

---

[19]- المصدر السابق ، ص 69.

[20]- المصدر السابق ص 43.

[21] - المصدر السابق ص 48.

الكائنات قوة،أو بالأحرى فهو القدير،بمعنى انه يستطيع أن يفعل ما لا يستطيع الإنسان،وما يتجاوزه قواه المحدودة،وما يلهمه إياه من شعور بالملذة بسبب محدوديته و ضعفه وعدمه ." .[22]

ولهذا أخذ الدين إرادة ومعرفة تفوق معرفة البشر . فالفلاح يزرع الأرض لكن في موسم الحصاد يربط الوفرة بفرحة الإله والقلة بالذنب والخطيئة ويستشهد فيورباخ في هذا، بقول بولس Paul : " لقد زرعت نبات أبو لوس وسقيته ولكن الله هو الذي أعطى أكثر" [23] I have palnted apollos watred but God save the increase.

ويعلق فيورباخ على هذا التصور إذن لم يزرع أي شيء ولم يروي أي شيء وإنما الله هو الذي أعطى الزيادة؟ إذن نشأة الدين بحسب فيورباخ تأسست كما نستشف تبعا لأغراض وأهداف البشر .

ومن هنا أيضا ظهر مفهوم آخر ككمال لقدرة الخارقة للإله ويقصد فيورباخ بذلك السحر يقول في هذا : "فالآلهة تجسيد لرغبات الإنسان،وإذا تحطمت القيود الطبيعية لقلب الإنسان وإرادته، يصير الإنسان كائنا ذا قوة غير محدودة تعادل قدر المحسوسة قدرة الإرادة والظواهر الغير الدنية لهذه القوة –الخارقة الطبيعية- للدين تتمثل في ممارسة السحر بين الشعوب المختلفة،حيث تظهر الإرادة المجردة بشكل ملموس في صورة آلهة تفرض سلطانها على الطبيعة ... فعندما قام المسيح بشفاء المرض وإحياء الموتى لإثبات قداسته وقدرته على تحقيق كل رغبات الإنسان، وفي هذا الموضع أي في المسيحية أو في ممارسة السحر تظهر الإرادة المجردة أو الرغبة المجردة أو الكلمة المجردة التي تتحكم في الطبيعة. " [24] .والفرق بين الدجال الساحر sorciers و اليهودي المتدين . بحسب فيورباخ ؛ أن الأول يحقق

---

[22]- المصدر السابق ص 49.

[23] - المصدر السابق ، ص 74

[24] - المصدر السابق ، ص 78-79.

رغبته بطريقة مخالفة للدين، بيد أن اليهودي والمسيحي يحقق مغزاه بطريقة دينية، باختصار فالدجال يفعل كل هاته الحيل لتحقيق مصلحته الذاتية،غير أن اليهودي والمسيحي يمارس السحر،لكونه بركة من الله،فهي لغة الإعجاز الديني للبشر، .

ثم يتساءل فيورباخ : لماذا لا يمتلك الشرق حياة متقدمة حديثة كالتي يمتلكها الغرب ؟ لأنه بحسبه في الشرق لا تختفي الطبيعة وراء الإنسان، بمعنى أن الإنسان المشرقي يستقي تفكيره من البواعث الطبيعية،فيرى في الملك إعجابا لكونه يمثل الآلهة، وهو إعجاب سماوي لا إعجاب أرضي،ولكن البديهي في الأمر أن الإنسان يختفي بجانب الله".[25]

لذا فإن المعجزات التي تحدث في الطبيعة أو الكائن الخارق الذي يمثل الدين، هي جزء من العناية الإلهية بل هي آيات للآلهة ذاتها،و إنكار هاته المعجزات هو نكران للآلهة .

ثم يتساءل : بما تتميز الآلهة عن الإنسان ؟

يجيبنا:" تتميز الآلهة عن الإنسان فقط بأنها لا محدودة،يعيش البشر وتتسم حياتهم بالإلوهية ولكن للأسف لأن الحياة لا تستمر لأنهم يموتون، ولكن الآلهة خالدة والناس أيضا سعداء، إلا أن هذه السعادة لا تدوم مثل سعادة الآلهة والناس قد يكون خيرين ولكن ليس بصفة دائمة،وهذا كما يقول سقراط يتمثل الفرق بين الآلهة والإنسان وهو فرق يتخطى في أن الآلهة خيرة دائما." [26].

فالله بهذا هو كائن خالد ولكن بحسب فيورباخ نقرأ في المسيحية : " يمضي جيل ويتبعه جيل آخر ولكن الأرض باقية إلى الأبد " .

وفي كتب زاندافيستا يعبر عن الشمس والقمر بوضوح على أنهما خالدين بسبب استمرارهما وقال inca البيروفي (من بيرو) إلى رهب من الدومينيكان "إنك

-[25] المصدر السابق، ص 86.

[26] المصدر السابق ص 111-112

تعبد إلها مات على الصليب،ولكن اعبد الشمس التي أبدا لا تموت." [27] .والله هو الكائن الرحيم العطوف على الجميع "لأنه يجعل الشمس تشرق على الخير ويرسل المطر للعادل والظالم." [28].

إذ هذا الكائن الذي لا يميز بين الخير والشر والعادل والظالم والذي يوزع متع الحياة لا يكون في الأخير إلى الطبيعة ذاتها.

ومن هنا فالاعتقاد في الله هو إما اعتقاد في الطبيعة (الكائن الموضوعي) ككائن إنساني ذاتي،أو الاعتقاد في الجوهر الإنساني كجوهر للطبيعة [29].

فالأول هو دين الطبيعة والآخر دين إنساني وروحاني،إذا ما يقوله الأول بما أن الطبيعة موجودة فأنا موجود،ويقول الثاني إن لم أوجد أنا فلا وجود للطبيعة والعالم .ففي الأول أيضا دفاعا عن الدين والإقرار بالتبعية الإنسانية حتى لا تصطدم باللعنة وسوء الحظ لكن يتساءل فيورباخ قائلا : لم يضع الله المعجزات أليس لرغبات الإنسان ؟[30] .

ويقدم لنا مثال على هذا عندما ضحكت السيدة Sarah العجوز التي وعدها الله ولدا لأن في الحقيقة كانت رغبتها في الإنجاب [31]. فأنجبت بقدرة الله،وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن الإنسان جوهر الله،لان الإنسان هو محرك الله. ولكن بعد التقدم الزمني يصير الإنسان هو القادر على تحقيق معجزاته لماذا ؟ لأنه بحسب فيورباخ في البداية كنا نشعر بالله في القلب، وفي النهاية صار الله يحل محل الجسد .. ثم لماذا اتخذ الله منطق الفكر في التقديم بحسب فيورباخ؟.

[2727] - د. عبد الحليم عطية، فلسفة فيورباخ ، دار الثقافة العربية (القاهرة) 2008 ، ص 269

[28] - المرجع نفسه ، ص 269

[29] - فيورباخ ، أصل الدين ، مصدر سابق ص 113

[30]- المصدر نفسه ، ص 115

[31]- المصدر نفسه ، ص 115

لأن بحسبه العقلانيون يخجلون من الإيمان بالله في الجسد، ويفضلون في كثير من الأحيان الاعتقاد في كل ماهو غير مرئي، لأنهم لو نظروا إلى الله في شكل مادة مثل ماهو الإنسان فستكون سخرية.

زد على هذا أن تؤمن بحسب فيورباخ أن تكون لك القدرة على التخيل بوجود شيء وهو غير موجود في الواقع لان أي دين كان ومهما كانت جبروته،يخفق حينما تريد البرهنة على وجود الله علميا و عمليا، و خذ كل والوسائل العلمية من الميكروسكوب، وعدسة مكبرة، ووسائل أخرى،جد متطورة، فتأكد بأنك تهدر من وقتك في فراغ، إذن لن تجده أبدا ؟ .

لأنه موجود في إيمان الإنسان فقط :" في خياله وعقله وقلبه لأن الله بنفسه ليس شيئا سوى جوهر خيال الإنسان وقلبه." .[32]

طبعا لقد برهن فيورباخ،في أكثر من موضع أن الإنسان انحنى للقوة الخفية، متذللّا لها،و ما هي في النهاية إلا مخلوقات، أفرزتها مخيلته، التي وضعته في موضع أعلى منه ليصير خصما له كوجود خارق للعادة، وغالبا ما يندفع الإنسان نحو أحاسيسه المؤلمة، لكن في نهاية المطب، لا يستطيع تفسيرها، فتصير هاجس ومحفز ليس للبحث، ولكن نحو الإخضاع .

ومن هنا جاء غرض فيورباخ في هذا الكتاب كمخلص للإنسان الدنيوي، الذي ولّع بحب الله،بدل حب نفسه و الإنسان،فصار رجل أخرويا، غير موجود دينيويا. إذن ما العمل بحسبه ؟ نكران الله و اللاهوت هو البرهنة على الكيان الجوهري للإنسان.

---

[32] - المصدر السابق، ص 118

خلاصة

ما قيمة هذا الطرح ؟ لقد توصلنا في ختام هاته الورقة،إلى جملة من المزايا المتعلقة بـ فلسفة فيورباخ و الإنسان بصورة عامة أهمها :

1/ البحث في الإنسان،هو تفكيك كل أشكال التشتت التي لحقت بالكينونة الإنسانية،وعمدت على تغريبها،فانتزعت منها كل العواطف الجميلة،و أدرجتها في كبت مزدوج ؛

الاول: النظر في الإبداع الإنساني، من الرؤية الدينية،هو خروج عن مفهوميه العبودية،اقصد التمرد على الإله . بوصفه هو مصدر الخلق و الإبداع. فاستسلم هذا الكائن إلى الجمود طيلة مسيرته العقائدية . تبعا لان كل تحديث هو بدعة وكل بدعة،صاحبها معرض للعنة الإلهية.

الثاني : الله بالنسبة لإنسان الدين،هو مفتاح لأسرار الوجود،وعمله هو الطاعة و الامتثال لأوامر الله فقط،فصار ينظر إلى الله في جميع الديانات، بأنه الخارق،و محقق للرغبات. فعوض أن يتأمل الإنسان الطبيعة،بواسطة العقل،صار حبيس لهواجس النفس،كـــــــ: (الخوف،و القلق،و الإقصاء. ولا علم) . مما نتج اغتراب للحقيقة،و تم تعويضها بالتصوف و الزهد . وجل أشكال التخلف الإنساني.

2/ فلسفة الدين عند فيورباخ، لا تقتصر على نقد الدين،بل هي طريق أيضا لإصلاح حال الفلسفة،بل بالأحرى الإنسان في صورته العامة، لان السؤال الحقيقي الذي كان لزاما أن يطرح فيما مضى،هو إمكانية البحث في وجود الإنسان الذي استلب حق طبيعته. عندما عوّض،بالسؤال عن وجود الله،و أسبقية الله عن الإنسان . فمّا إن ولد هذا الإنسان فباع حياته لله . إذن الإنسان مات منذ زمن طويل ؟.

3/ إذن محاولة فيورباخ تستشرف الإنسان المستقبلي،وتنظر إليه جوهرا،بدل كائن مسلوب من حريته،و إراداته، التي استغلتها الكنائس و المساجد،باسم نصر دين الله،مماّ راح الإنسان ضحيتها،فأصبح بهذا الإنسان ياشكل عليه الإنسان، و

مثالنا في ذالك شعب فلسطين الذي يدفع الجزية الإلهية باسم كلمة شعب الله المختار .

من هنا طرح فيورباخ هو طرح موضوعي إلى حد بعيد. وعليه فهل فهمنا فيورباخ حق الفهم حتى نقدر على تحرير إنسانيتنا المستلبة ؟.

ا/ المصادر

1- فيور باخ، أصل الدين،دراسة وترجمة،د. احمد عبد الحليم عطية،المؤسسة الجا معية للدراسات والنشر و التوزيع بيروت،لبنان،ط1 1991

ب/ المراجع

- فرويد : مستقبل الوهم،ترجمة جورج طرابيش دار الطليعة بيروت، ط1 1984 .

2- د. عبد الحليم عطية، فلسفة فيورباخ،دار الثقافة العربية (القاهرة) 2008.